

الفصل الثالث

علم النفس وقضية التنمية(*)

* تمهيد.

* تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها.

* الاستفادة المثلى من إمكانيات الشخصية وطاقاتها.

* الحفاظ على إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعادتها إذا اضطرت.

* علاج المشكلات الاجتماعية العامة والوقاية منها.

* خاتمة.

(*) نشر هذا البحث في مجلة «الناهل» المغربية : مجلد ٣ - عدد ٦ - يوليو ١٩٧٦.

تمهيد:

تعتبر التنمية (بمختلف جوانبها) قضية هامة تشغل كافة المجتمعات على اختلاف المذاهب الأيديولوجية التي تتبناها وتتخذها أساساً لتنظيم النشاط والإنتاج والعلاقات فيها، بل إن كثيراً من المجتمعات تتباهى بأنها حققت معدلات تنمية ترى أنها فاقت فيها غيرها أو فاقت فيها ما توقعته أو خططت له، بينما نجد مجتمعات أخرى فشلت في تحقيق معدل التنمية الذي توقعته أو خططت له تشير إلى هذا الفشل في استحياء وتجاهد نفسها بحثاً عن تبرير مقبول بين أفرادها في الداخل وأصدقائها أو منافسيها في الخارج. والسبب في اهتمام المجتمعات بقضية التنمية واضح، ذلك أن التنمية في نهاية الأمر تعني مزيداً من الإنتاج الذي يحتاجه المجتمع لاستهلاكه ولرفاهيته ولتصدير فائضه أو المبادلة عليه لقاء سلع أخرى يحتاجها من مجتمع آخر، كما أنها تعني أيضاً مزيداً من النجاح في مواجهة المشاكل الاجتماعية الهامة وحلها، سواء مشكلة الفقر أو مشكلة الأمية أو مشكلة البطالة. . وما إلى ذلك من مشكلات يصعب حصرها، ويضيق بنا المقام عن ذكرها.

وتقوم مختلف العلوم بمختلف فروعها بدور أساسي في تحقيق التنمية. ولا شك أن معدلات التنمية الهائلة في أمريكا وفي روسيا وفي الصين وفي اليابان وغيرها ما كانت لتتم لولا التقدم العلمي المذهل الذي وصلت إليه هذه البلاد والذي تبعه استخدامه التطبيقي لتحقيق التنمية. بل إن أوروبا التي

تحطمت من جراء حربين عالميتين عنيفتين في أقل من ثلث قرن، ما استطاعت أن تقوم هذه القومة المذهلة في سرعتها بعد هذا التحطيم الشديد إلا على أساس متين من العلم واستخداماته التطبيقية. ويكفي دليلاً على ذلك سرعة نهضة ونمو كل من روسيا وألمانيا واليابان بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبعد كل التدمير الذي تعرضت له من جرائها.

وفي هذا المقال نحاول طرح الدور الذي يقوم به علم النفس كأحد العلوم المختلفة التي تشابك في وضع الأساس العلمي للتنمية في أي مجتمع مهما كانت قيمه واتجاهاته. ونظراً لأن علم النفس يتخذ من الشخصية الإنسانية وسلوكها موضوعه الرئيسي، ونظراً أيضاً لأن التنمية تعتمد بدرجة كبيرة على نوعية وخصائص الشخصية السائدة في المجتمع الذي ينشد التنمية، فإن خدمة علم النفس - في رأينا - لقضية التنمية تركز على منطلقات أربعة، تتعلق ثلاثة منها بالشخصية في حين أن المنطلق الرابع ينعكس في نهاية الأمر بالتأثير عليها. أما هذه المنطلقات الأربعة فإننا نحددها في التالي:

- ١ - تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها.
 - ٢ - الاستفادة المثلى من إمكانيات الشخصية وطاقاتها.
 - ٣ - الحفاظ على إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعادتها إذا اضطرت.
 - ٤ - علاج المشكلات الاجتماعية العامة والوقاية منها.
- ونتناول فيما يلي كلاً من هذه المنطلقات الأربعة بشيء من التفصيل:

أولاً - تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها:

إن الشخصية الإنسانية منذ تكوينها جينياً وطوال حياتها في حاجة مستمرة إلى الرعاية التي تحقق لها تنمية إمكانياتها وطاقاتها واستعداداتها الجسمية والعقلية والشخصية المختلفة حتى تصل إلى المستوى اللائق بما ينتظر منها في مثل مراحل حياتها وظروفها. فالرعاية الطبية والاجتماعية للمرأة

الحامل تتضمن رعاية للجنين وتهيئة أنسب الظروف لنموه الطبيعي . كما أن رعاية الأم لوليدها، ثم بعد ذلك رعاية المدرسة لتلاميذها، ومن بعد رعاية مؤسسة العمل لمستخدميها ورعاية المجتمع عامة لأفراده . كلها تهدف إلى تحقيق نفس الهدف الخاص بتنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعداداتها المختلفة حتى يمكنها أن تؤدي دورها وتواصله بالكفاءة اللازمة لعملية التنمية التي يستهدفها المجتمع .

ويقوم علم النفس بدور ذي قيمة كبيرة في هذا المجال . فهناك الدراسات والتوصيات الهامة الكثيرة التي يقدمها علماء النفس والخاصة بكيفية رعاية الأم خاصة والأسرة لأطفالها وتربيتها وتنشئتها لهم بالكيفية التي تسمح لهؤلاء الأطفال بفتح إمكانياتهم الجسمية والعقلية والشخصية، وتحافظ على صحتهم النفسية وتغرس فيهم الفضائل الخلقية، بل إن وسائل الإعلام الجادة من صحافة وإذاعة وتلفزيون كثيراً ما تعهد إلى بعض علماء النفس ومتخصصيه بإعداد المقالات والأحاديث والموضوعات والبرامج النفسية التي ترشد الآباء والأمهات وأفراد المجتمع عامة إلى كيفية تربية الأطفال وتنشئتهم، وتناول مشكلاتهم، وعلاج انحرافاتهم .

وتزخر كتب علم النفس عامة وتلك التي ألّفها المحللون النفسيون وعلماء نفس الطفل خاصة بالبحوث والآراء التي تؤيد ما قلناه في مجال رعاية الأطفال وتنشئتهم . ولا يتسع المقام هنا إلا لإيراد مثلين على ذلك :

١- في بحث شامل قامت به كمنجز Cummings (١٤ ص ٣٤) في إنجلترا نشر عام ١٩٤٤ على ٢٣٩ طفلاً بين الثانية والسابعة من العمر لدراسة الاضطرابات النفسية الشائعة بينهم، وكانوا يوجدون في دور حضانة وفي مدارس للأطفال، تبين منه أن الآباء في ٣٥ حالة يمكن تصنيفهم إلى مجموعتين : مجموعة المهملين لأبنائهم ومجموعة المهتمين أكثر من اللازم (أو المنشغلين أكثر من اللازم بأبنائهم أو المفرطين في تدليل أبنائهم) كما تبين أنه كان يوجد فارق كبير بين أطفال المجموعتين، فأطفال الآباء

المفرطين في تدليلهم أظهروا صفات العصبية أكثر من الأطفال المهملين .
بينما أظهر الأطفال المهملون صفات مضادة للمجتمع أكثر من الأطفال
المدللين (مثل صفات العدوانية، والقسوة، وإدمان الكذب).

ولنا أن نتساءل: ما دلالة معلومة قد تبدو بسيطة كهذه؟ لا شك أن
دلالتها كبيرة، وهي ذات فائدة أكبر. إنها تقول لنا بكل بساطة ووضوح: إذا
كان لنا أن نربي أطفالاً تتحقق لهم الصحة النفسية، ويتوفرون على
الخصائص اللازمة لتنشئة رجال المستقبل بما يضمن السلامة النفسية والخلو
من الاضطرابات السلوكية التي تضعف الشخصية وتهتد قواها وتقعدها عن أداء
دورها المنتظر في عملية التنمية فلا بد لنا من الاعتدال أثناء تنشئة أطفالنا بين
الاهتمام والإهمال.

٢ - مشكلة الطفل الوحيد: من الملاحظات الشائعة أن الطفل الوحيد
لوالديه سواء كان ذكراً أو أنثى - غالباً ما تشيع فيه الاضطرابات النفسية أكثر
من أقرانه. ولقد لفتت هذه الظاهرة أنظار المحللين النفسيين على وجه
خاص، بسبب ميلهم إلى الغوص في أعماق العلاقات النفسية بين الأبناء
والآباء وبين الأخوة بعضهم البعض، وبسبب أيضاً ما يعرض على المحللين
النفسيين من حالات مرضية طلباً للعلاج سواء من الأطفال الوحيدين أو
الراشدين الذين كانوا أطفالاً وحيدين.

وكنموذج لدراسات وتعليقات المحللين النفسيين على هذه الظاهرة
سنتكفي بالرجوع إلى علمين من أعلام التحليل النفسي أحدهما هو بريل
Brill، وهو من أول وأشهر المحللين الأمريكيين الذين تتلمذوا على يد فرويد
وزاملوه وصادقوه وترجموه إلى الإنجليزية، أما الثانية فهي ميلاني كلاين
Melanie Klein، وتعتبر من أشهر المحللات النفسيات على الإطلاق،
ومؤسسة أشهر مدرسة ذات اتجاه تحليلي للأطفال هو العلاج باللعب بدلاً من
طريقة التداعي الطليق التي لا تناسب صغار الأطفال بقدر مناسبتها للكبار.

ولنبدا ببريل الذي أفرد فصلاً خاصاً في كتابه: «المبادئ الأساسية للتحليل النفسي» هو الفصل الحادي عشر والمعنون «الطفل الوحيد» (٨ ص ٢٥٤ - ٢٦٨).

ومما يذكره عن اضطراب الشخصية والضعف النفسي في الطفل الوحيد أنه يحتل مكانة خاصة في المنزل، وأن الآباء سواء تعمدوا أو لم يتعمدوا دائماً يشبعون رغبات الطفل الوحيد ويفسدونه بالإفراط في تدليله. ويحوظونه بالرعاية والتوجيه المحكم مما يجعله يعتمد عليهم اعتماداً زائداً في تصريف أموره ويرتبط بهم ارتباطاً انفعالياً شديداً، الأمر الذي يؤدي به في نهاية الأمر إلى أن يصبح ضعيف الشخصية لا يقوى على مواجهة مواقف الحياة ومشكلاتها مواجهة مستقلة ناضجة. هذا إلى جانب أن الطفل الوحيد يكون محروماً من الأخوة الذين يدخل معهم في علاقات تعاون ومنافسة ويشاركهم مواقف معيشية تقترب في طبيعتها من مواقف الكبار، وبالتالي يحرم من التدريب على مواجهة هذه المواقف ومن تنمية مهاراته في علاجها. ولذلك فهو «لا يعرف كيف يتصرف، ولا يثق في الناس، ولا يستطيع أن ينسجم مع أحد».

أمّا ميلاني كلاين فأتت عرضها لحالة إرنا Erna، (١٣- ص ٣٥ - ٥٧) تلك الطفلة الوحيدة البالغة من العمر ست سنوات والتي كانت تعالجها من بعض الأعراض العصائية الشديدة، لفتت ميلاني كلاين النظر إلى أن الطفل الوحيد يعاني بدرجة أكبر من القلق الذي يشعر به إزاء أخته أو أخيه الذي يتوقع وصوله دائماً، ومن إحساسه بالذنب كنتيجة لدوافع العدوان اللاشعورية التي يوجهها نحو هؤلاء الإخوة أثناء توهم وجودهم داخل الأم، لأنه لا توجد لديه الفرصة لتنمية علاقات إيجابية معهم في مستوى الواقع. «هذه الحقيقة غالباً ما تجعل الأمر أكثر صعوبة على الطفل الوحيد لكي يكيف نفسه مع المجتمع».

ويمكن أن نضيف إلى كل من رأيي بريل وميلاني كلاين أن الطفل بين

إخوته يتاح له أن ينفس عن مختلف انفعالاته ورغباته أثناء لعبه مع إخوته وبالتالي يتخفف منها ويجد لها إشباعاً في الواقع فلا يحبسها داخل نفسه في عملية قمع أو كبت تضر بنفسيته، وهكذا يكون أفضل حظاً من الطفل الوحيد من حيث الصحة النفسية.

وعند هذا نتساءل من جديد: ما دلالة حقيقة قد تبدو بسيطة كهذه؟ نحن لا نشك في أن هذه الحقيقة على بساطتها شديدة الأهمية كبيرة النفع. إنها تقول لنا إنه يفضل دائماً لسلامة البناء النفسي للطفل، ولتنشئته بالكيفية التي تكسبه الاتزان النفسي المطلوب لكي يصبح أكثر قدرة على الإسهام في تنمية مجتمعه عند رشده، نقول أفضل لهذا الطفل ألا يكون الطفل الوحيد. لكن إذا أجبرت الظروف الأبوين على أن يكون طفلهما وحيداً فلا بد من اللجوء إلى الحلول البديلة مثل تهيئة صداقات وزمالات للطفل لتواجد معه لفترات طويلة يلعب معها ويختير معها العلاقات الاجتماعية ويعبر من خلالها عن الانفعالات والدوافع التي تعتمل في داخله (مثل إلحاقه بدور الحضانه. واصطحابه كثيراً في زيارة الأسر التي يتواجد بها أطفال ليلعب معهم..). ومن جانب آخر فإن مثل هؤلاء الآباء الذين لديهم الطفل الوحيد ينبغي عليهم أن يكونوا وهم يتعاملون معه على وعي بضرورة الاعتدال في الاهتمام به والاستجابة لرغباته على نحو ما ذكرناه من قبل.

وإذا كان المثان السابقان اللذان أوردناهما كنموذج لإسهامات علم النفس في مجال تحديد الأساليب المثلى التي ينبغي على الوالدين والأسرة اتباعها في تربية الأطفال وتنشئتهم حتى يشبوا متمتعين بشخصيات ناضجة مترنة، أقدر طاقة على الإسهام في تنمية بلادها والنهوض بها، فإن الأمر بالمثلى أيضاً فيما يتعلّق بإسهامات علم النفس التي تزخر بها مؤلفاته، خاصة ما تعلّق منها بعلم نفس الطفل وبعلم النفس التربوي، والتي توضح الأساليب المثلى في توجيه التلاميذ وتعليمهم وفي إرشاد المعلمين والمسؤولين عن التعليم إلى أنسب طرق التعامل مع التلاميذ وعلاج مشكلاتهم، ورفع كفاءة

المؤسسة التعليمية في أداء رسالتها. ونظراً لأهمية دراسات وإسهامات علم النفس في هذا المجال فقد فضلنا معالجتها في فصل مستقل عن علم النفس والمدرسة. وهذه الدراسات والإسهامات تهدف أيضاً إلى تقديم التوصيات إلى المسؤولين عن التعليم لرفع كفاءته ومساعدة مؤسسة التعليم على القيام بواجبها الذي يتكامل مع واجب الأسرة في تنمية إمكانيات الشخصية ورفع طاقاتها وتحسين مستوى نضجها وكفاءتها، حتى يمكنها في نهاية الأمر القيام بدورها في عملية التنمية خير قيام.

فإذا ما انتهينا من دور الأسرة ودور مؤسسة التعليم فيما يختص بتنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها وصلنا إلى الدور الذي ستضطلع به من بعد مؤسسة العمل التي سوف تمارس الشخصية من خلالها أداء وظائفها في خدمة المجتمع وتنميته. وهو دور هام أيضاً في مجال تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها. ولعل مؤسسات العمل ووحداته بالمجتمع تقوم بدورها هذا بشكل أوضح ما يكون فيما يعرف بالتدريب المهني، والذي تنظمه للملتحقين الجدد بالعمل أو من يريدون الالتحاق به لإكسابهم المعرفة اللازمة والمهارة المطلوبة لإنجاز العمل الذي سيكلفون به ومواجهة مشكلاته، أو الذي تنظمه للعاملين فيها بهدف رفع مستوى مهاراتهم في أداء عملهم وفي مواجهة مشكلاته أو بهدف تعلم أساليب وطرق جديدة في الإنتاج. وتخصص مؤلفات علم النفس الصناعي خاصة فصولاً توقفها على دراسات علم النفس وإسهاماته المتعلقة بالأساس النفسي لعملية التدريب، وتوصيات علم النفس لرفع كفاءة العملية التدريبية.

وللتدليل على ذلك نكتفي بالإشارة إلى مثل واحد كنموذج لتلك الأسس النفسية الكثيرة التي أوضحتها دراسات علم النفس وتوصياته لرفع كفاءة العملية التدريبية، ويتعلق بتركيز وتوزيع مدة التدريب. فطالما كانت برامج التدريب تحدد زمناً معيناً يقضيه العامل في التدريب فهل يكون من الأجدى لتدعيم أثر التدريب وزيادة درجة استفادة العامل منه أن يركز زمن

التدريب في فترة واحدة طويلة (أو فترات قليلة العدد طويلة المدد) أو يوزع إلى فترات كثيرة كل منها تستغرق مدة قصيرة. إن نموذج الدراسات التجريبية التي تجرى للإجابة على هذا التساؤل هو اختيار واجب يستغرق التدريب على إجادة القيام به زمناً معيناً وليكن ست ساعات على سبيل المثال، ثم تكون ثلاث مجموعات أو أربع - على سبيل المثال أيضاً - من العاملين المراد تدريبهم على إجادة القيام بهذا الواجب، ويراعى قدر الإمكان تشابه هذه المجموعات في قدراتها وإمكاناتها الشخصية. ثم تجعل المجموعة الأولى تتلقى البرنامج التدريبي مكثفاً في مدة ست ساعات متواصلة ونجعل المجموعة الثانية تتلقى نفس برنامج التدريب في يومين متتاليين على فترتين كل منهما ثلاث ساعات. ونجعل المجموعة الثالثة تتلقى نفس البرنامج في ثلاثة أيام متتالية على ثلاث فترات كل واحدة منها ساعتان. أما المجموعة الرابعة فتتلقى نفس البرنامج في ستة أيام متتالية على ست فترات كل منها ساعة واحدة. ثم بعد الانتهاء من برنامج التدريب في كل مجموعة نخبر مدى استفادتها من هذا التدريب.

هذا نموذج يوضح الملامح العامة للدراسات التجريبية التي تجيبنا عن تساؤلنا هذا أما التفاصيل فمن البديهي أنها سوف تختلف من دراسة لأخرى (مثل عدد مجموعات التجربة، وعدد فترات التدريب، وطول كل فترة... إلخ) وتكاد تتفق نتائج الدراسات التجريبية بهذا الشأن على أن التدريب الموزع يفضل التدريب المركز. ويورد لنا جون فريزر John Freser (٩ ص ٢٢١) نتائج تجربة في هذا المجال يتضح منها أن الإنجاز قد ارتفع من ١٢٥ وحدة إلى ٢٦٥ بعد أن قسمت مدة التدريب من فترة واحدة طويلة إلى اثنتي عشرة فترة قصيرة. ويعلّل فريزر ذلك بأن تقسيم مدة التدريب إلى فترات قصيرة يقلل التعب ويستحث دافع العامل أكثر نحو الإنجاز والتحصيل، ويثبت أكثر عادات العمل المفيدة. وفي دراسة لكروفورد Grawford نشرت في عام ١٩٤٧ (١٠ ص ٤٠٥) عن تدريب القوات الجوية، حيث كان برنامج التدريب للطيارين المقاتلين عبارة عن ألفي طلقة لإصابة هدف معين استكمل

بعض الطيارين هذه الطلقات الألفين في أربع طلعات وآخرون في خمس وغيرهم في ست ومجموعة أخرى في سبع، بينما الباقون في ثمان طلعات. فبين من هذه الدراسة أن دقة إصابة الهدف في نهاية التدريب، كانت تتزايد مع تزايد توزيع فترات التدريب حيث كان الطيارون الذين تدربوا في ثمان طلعات أفضل بأكثر من خمس مرات في استفادتهم من هذا التدريب عن زملائهم الذين تدربوا في أربع طلعات فقط.

ولا شك أن لهذه المعلومة النفسية البسيطة قيمة كبيرة في تخطيطنا لبرامج التدريب المختلفة لرفع كفاءتها في إكساب المتدربين أكبر فائدة من برنامج التدريب. فهذه المعلومة توصينا بتجزئة مدة التدريب إلى عدد مناسب من الفترات بدلاً من تجميعها في فترة واحدة طويلة أو في عدد قليل من الفترات الطويلة، إذ يساعدنا هذا على تحقيق استفادة أكبر من برامج التدريب.

ثانياً - الاستفادة المثلى من إمكانيات الشخصية وطاقاتها:

إن تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها، والتي سبق أن تعرضنا لها في البند السابق لا تحقق الفائدة المرجوة منها إلا إذا قام المجتمع عن طريق تنظيماته وهيئاته ومؤسساته المختلفة بتحقيق أفضل استفادة ممكنة من هذه الشخصية في دفع عجلة التنمية بالمجتمع. وبمعنى آخر ينبغي على المجتمع أن يقوم بتخطيط ينظم عن طريقه كيفية إسهام كل فرد في تنمية مجتمعه، ويوزع على كل شخصية الدور المناسب لها وإمكانياتها في عملية التنمية. فهذه الشخصية المعينة التي نشأها المجتمع ونمى طاقاتها وتمهدها في مختلف مراحلها التي مرّت بها أصبحت تميز بميزات معينة وبخصائص خاصة تختلف عن غيرها. ومن ثمّ فهي أصلح من غيرها للقيام بدور معين في عملية التنمية في حين أن غيرها هذا يكون أصلح منها للقيام بدور مخالف في نفس عملية التنمية وهكذا. هذه إذن هي جوهر القضية: أن يأخذ كل

شخص الدور الأنسب له وإمكانياته الخاصة في عملية التنمية، حتى نتوقع له أن يقوم بدوره خير قيام، فنتجح في نهاية الأمر عملية التنمية التي يستهدفها المجتمع. ويعرف المسؤولون عن سياسة التشغيل هذا الأمر بـ«وضع الشخص المناسب في المكان المناسب»، أي يشغل كل فرد الوظيفة التي تتناسب وإمكانياته الجسمية والعقلية والشخصية المختلفة. ولما كانت الوظائف تختلف فيما تتطلبه من الخصائص الجسمية والعقلية والشخصية، وكذلك الأمر أيضاً بالنسبة للأفراد حيث يختلفون فيما بينهم في هذه الخصائص، فإننا سوف نجد أن شخصاً يكون أصلح من غيره لوظيفة ما، وأن غير الصالح لوظيفة ما هو أصلح من يكون لوظيفة أخرى. فإذا وضعت كل شخصية في العمل الذي يتناسب وإمكانياتها وطاقاتها تحقق واحد من أهم أسباب نجاح التنمية في مجتمع من المجتمعات. ولنا أن نتصور أن كل تلميذ يتعلم نوع التعليم الذي يناسبه (والتلمذة تعتبر وظيفة في نظر علم النفس) وأن كل عامل يعمل في العمل الذي يناسبه، وأن كل موظف يعمل في الوظيفة التي تناسبه، وأن كل رئيس وكل مدير وكل مسؤول يعمل في نوع الرئاسة أو الإدارة أو يتحمل نوع المسؤولية التي تتناسب وإمكانياته الشخصية... أقول لو تصورنا أن هذا هو الحادث في مجتمع ما لوصلنا إلى قناعة كبيرة بأن تلاميذ هذا المجتمع سوف يحققون تفوقاً علمياً كبيراً، وأن العاملين فيه سوف يحققون مستوى إنتاجياً ممتازاً. وهكذا يحقق هذا المجتمع معدلاً كبيراً في التنمية.

ويقوم علم النفس بدور كبير في «وضع الشخص المناسب في المكان المناسب» حيث يحلل نوع الدراسة أو نوع العمل لمعرفة الخصائص العقلية والشخصية اللازمة للنجاح فيه، ويدرس الفرد لمعرفة خصائصه العقلية والشخصية. وبناء على ذلك يوجه كل تلميذ لنوع الدراسة المناسب له وكل عامل لنوع العمل المناسب له، أو يختار لكل نوع من الدراسة أو الأعمال من يناسبه من التلاميذ أو العاملين.

ثالثاً - الحفاظ على إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعادتها إذا اضطربت :

من الحقائق المعروفة في علم النفس تلك التي أبرزها وتبناها علماء التحليل النفسي والقائلة بأن الصحة النفسية «هي القدرة على الحب والعمل». بمعنى أن أوضح علامات الصحة النفسية في الشخصية وأهمها هي قدرتها الكبيرة على أن تحب، وقدرتها العالية على العمل والإنتاج. وحقيقة، ما أخرج قضية التنمية في أي مجتمع إلى توافر هاتين الطائفتين في الشخصية طاقة الحب وطاقة العمل. فالحب يقوي الروابط بين أفراد المجتمع ومؤسساته ويزيد من تماسكه، ويقاوم النزعات التدميرية والعدوانية الموجودة بين أفرادها، فينصرف الجميع كل يعمل لصالح نفسه وغيره ومجتمعه. أمّا العمل فهو لا شكُّ جوهر قضية التنمية ومن أكبر عوامل تحقيقها، فليست التنمية في نهاية الأمر إلاَّ عائد عمل الأفراد بالدرجة الأولى. فكم من مجتمعات بسبب العمل حققت معدلات كبيرة من التنمية لا تتفق وما تتمتع به من إمكانيات وثروات طبيعية كاليابان وسويسرا وغيرها. ولعلَّ هذه بديهية لا تحتاج إلى برهنة أو دليل.

خلاصة القول إذن أن هذه الشخصية التي اهتمَّ المجتمع بتنمية إمكانياتها وطاقاتها في مختلف مراحل حياتها - جينياً، وطفولة مبكرة وتلمذة، وعملاً - ووضعها المجتمع في الدراسة المناسبة أو العمل المناسب، لا بدَّ أن يتابعها المجتمع بالرعاية حتى تظل قدر المستطاع في مستوى مناسب من الصحة النفسية، فلا تتعرض للضغوط الشديدة والأزمات العنيفة التي تفقدها الكثير من اتزانها النفسي وتبدد الجزء الكبير من طاقاتها الشخصية في الصراعات النفسية، تلك الطاقات التي كان ينبغي أن تعبأ لصالح التنمية في المجتمع.

وليست هذه الحقيقة على المستوى المنطقي النظري فقط، بل هي بالمثل مؤيدة على المستوى الميداني الواقعي. ففي الدراسات التي قام بها المتخصصون في علم النفس ما يدعم ذلك بدرجة كبيرة. ففي بحث ميداني

للدكتور محمود أبو النيل (٧) يتضح منه أن المرضى السيكوسوماتين (المرضى النفسيين الذين تتبلور أمراضهم في أعراض جسمية) لهم سمات معروفة بأنها تعوق الإنتاج. وفي بحث ميداني لنا عن سيكولوجية العامل المشكل في الصناعة (العامل الذي يعتبر سلوكه معوقاً لعملية الإنتاج) (٤) تبين أن العمال المشكلين تشيع بينهم الاضطرابات النفسية الخطيرة في المقارنة بزملائهم غير المشكلين. وإذا تركنا أثر الاضطراب النفسي على قدرة العامل الإنتاجية إلى مظاهر سوء التوافق المهني: مثل كثرة الحوادث التي يتورط فيها العامل ومثل كثرة غيابه عن عمله بدون عذر. فسوف نجد نفس الأثر الواضح في البحوث الميدانية. ففي دراسة لسوسن إسماعيل (١) عن علاقة مستوى القلق بغياب العمال في المجال الصناعي تبين لها وجود علاقة قوية بين مستوى القلق وأيام الغياب بدون إذن، حيث وصل معامل الارتباط بينهما إلى ٠,٦٩٥ وكان دالاً عند مستوى ٠,٠٠١ مما يوضح أن العمال الذين يعانون من قدر كبير من القلق النفسي كثيرو التغيب عن أعمالهم بدون إذن. أما فارس حلمي فقد درس في بحثه الميداني (٢) عن سيكولوجية العامل المتغيب علاقة تغيب العمال الصناعيين بدون عذر بسبعة عوامل هي: مدى بعد مسافة السكن عن مكان العمل - الحالة الاجتماعية - الأجر - فترة العمل - المؤهل الدراسي - السن - سمات الشخصية، فتبين له عدم وجود علاقة أو تأثير لأي من تلك العوامل على التغيب بدون عذر عن العمل باستثناء سمات الشخصية، حيث تبين أن العمال كثيري التغيب بدون عذر يتميزون بأنا ضعيف لا يقوى على التمييز بين الجوانب المواتية وتلك المعادية في مجالات الحياة، وبالتالي لا يستطيع التعامل المناسب معها أو التوافق مع العالم المحيط، كما تبين أيضاً أن القلق النفسي كان يشيع بينهم بدرجة أكبر، كما كانوا يحسون أكثر بالاضطهاد وبالإحباط وبرؤية العالم المحيط على أنه معاد ومهدد لهم. وهذا يؤدي شيوع الاضطراب النفسي في العامل كثير الغياب عن عمله. أما بالنسبة لحوادث العمل فقد تبين للدكتور قدرتي حفني في دراسته الميدانية (٦) عن أثر الجمود الإدراكي والجمود الحركي

على التعرض للحوادث في الصناعة أن هناك علاقة واضحة بين الجمود بمظهره الحركي والإدراكي وبين الحوادث. ونظراً للعلاقة الوثيقة بين الجمود والتوتر النفسي فإن هذا يشير إلى تأثير الاضطراب النفسي على رفع معدلات حوادث العمل. كما أننا قمنا بدراسة ميدانية أخرى عن علاقة الحوادث في الصناعة بالصفحة النفسية للذكاء (٣) تبين منها أن مستوى الذكاء لم يرتبط بحوادث العاملين في الصناعة، لكن كان نمط الصفحة النفسية للذكاء هو الذي يرتبط بالحوادث، حيث كانت تشيع فيها العلامات التي تدل على الاضطراب النفسي بين العمال متكرري الحوادث. مما يزيد نتائج البحث السابق وغيره من البحوث في تراث علم النفس عامة.

وإذا كانت القدرة على العمل تعتبر مظهراً أساسياً من مظاهر الصحة النفسية في الراشدين - على نحو ما سبق أن أوضحنا - فإن هذه الحقيقة تصدق بالمثل على الأطفال والتلاميذ في كافة مراحلهم، حيث يعتبر التحصيل الدراسي ممثلاً لقدرة التلميذ على العمل، ولهذا كثيراً ما يكون اضطراب مستوى تحصيل التلميذ وتدهوره من أوضح الدلائل على إصابته بالاضطراب النفسي، ولهذا كثيراً ما يشيع الفشل الدراسي في تاريخ الحالات التي يدرسها ويعالجها المحللون النفسيون كعرض مرتبط بالمرض النفسي لهذه الحالات كما في حالة إرنا السابق ذكرها والتي تولت كلاين أمر علاجها. بل ذهبت ميلاني كلاين إلى حد القول بأن كفا القدرة التعليمية لارنا (أي عدم قدرتها على التعليم على الرغم من إمكانياتها العقلية المناسبة للتعليم) كان أكثر أعراضها المرضية مقاومة للعلاج. وفي دراسة ميدانية نشرت عام ١٩٧٠ لفيلدهسن Feldhusen وزميليه درسوا فيها العلاقة بين التحصيل الدراسي وكل من السلوك العدواني والسلوك المقبول اجتماعياً (١١ ص ٣٨٨ - ٣٨٩) حددوا فيها مجموعة من التلاميذ تمثل نوعية السلوك العدواني وأخرى تمثل نوعية السلوك المقبول اجتماعياً. وبعد خمس سنوات من ذلك قاموا بعمل مقارنة بين مستوى التحصيل الدراسي في كل من

المجموعتين فانتضح أن مجموعة التلاميذ العدوانيين كانت أقل في القراءة والكتابة والدراسات الاجتماعية والعلوم والرياضيات. ولما كان السلوك العدواني الذي حدّده هؤلاء الباحثون كمعيار لاختيار مجموعة العدوانيين يمثل الاضطراب النفسي بوضوح، مثل إحداث فوضى في حجرة الدراسة، وكثرة الغضب وشدّته، وحب السيطرة، والتأخير أو الغياب بدون عذر، والإجابة بفظاظة وبعدم احترام والكذب والسلوك المتصّف بالشر، فإنّ هذا يؤكد لنا تأثير الاضطراب النفسي على تحصيل التلميذ.

إذن نخلص إلى القول بأنّه إذا كنّا نسلم بضرورة الحفاظ على الصحة الجسميّة للشخص في مختلف مراحل عمره وعلاج ما يضطرب منها، كما هو الواقع فعلاً حيث انتشار التأمين الصحي ومستشفيات العلاج الطبي وعياداته فإنّه ينبغي علينا بالمثل أن نسلم بضرورة الحفاظ على الصحة النفسيّة للشخص في مختلف مراحل عمره وعلاج ما يضطرب منها، وعلى علم النفس تقع مسؤولية ذلك. وهو يقوم بهذه المسؤولية عن طريق مكاتب وعيادات التوجيه والإرشاد النفسي ومستشفيات العلاج النفسي، سواء منها ما هو ملحق بالمدارس والجامعات أو بالمصانع ومؤسسات الدولة أو ما هو خاص يتولاه الاختصاصيون بصفتهم الشخصية. وبذلك تحفظ الطاقة الخاصّة بالفرد دون أن يبددها الاضطراب النفسي فيقوى الفرد على تأدية دوره في عملية التنمية.

رابعاً- علاج المشكلات الاجتماعية العامة والوقاية منها:

خصصنا بندين سابقين للحديث عن الإسهامات التي يمكن لعلم النفس تقديمها لتهيئة أفضل تكوين وتنمية ورعاية ممكنة للشخصية وطاقاتها، على اعتبار أنّ الشخصية من أهم عناصر النجاح في تحقيق معدّل عالٍ للتنمية في المجتمع، ولكن مع انطلاقة المجتمعات نحو التنمية تنطلق بعض المشكلات الاجتماعية أو قد تتفاقم مثل الجريمة، وانحراف الأحداث، والبغاء، وتعاطي المخدرات. وتفكك الأسرة... وما إلى ذلك من مظاهر

الاغتراب أو الاستلاب النفسي. وتحتاج تلك المشكلات في دراستها وعلاجها أو الوقاية منها إلى إسهامات المتخصصين في علم النفس. وكثيراً ما تنشأ المجتمعات مراكز للبحث العلمي يكون بين أهدافها دراسة مثل هذه المشكلات ومحاولة علاجها أو الوقاية منها على المستوى القومي. ومن أمثلة ذلك تلك الدراسات التي يقوم بها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر، والتي يشترك فيها علماء النفس ومتخصصوه مع آخرين. وأن نجاح علماء النفس في ذلك لا شك مفيد في تقليل نزف الطاقة البشرية التي تتبدد هباء من جراء انتشار مثل هذه المشكلات الاجتماعية وتفاقمها، وبالتالي يحفظها لتعباً لصالح تنمية البلاد وتقدمها.

تدريس علم النفس:

لعلنا انتهينا الآن إلى قناعة بأهمية علم النفس وإسهاماته التي يمكن أن يقدمها لفائدة المجتمع عامة ولصالح التنمية خاصة. وقبل أن ننتهي من مقالنا هذا لا بد من الإشارة إلى الاعتراف المتزايد الذي يلقاه علم النفس من مختلف بلدان العالم شرقه وغربه، وإن كانت اتجاهات هذا العلم التفصيلية وتركيز مجالات اهتمامه تختلف بالضرورة من بلد لآخر تبعاً لاختلاف ما يعتنقه كل بلد من اتجاهات، وما يتعرض له من ظروف. فإذا كان علم النفس في أمريكا يتجه أكثر نحو الصناعة وخدمتها، فهو في روسيا يتجه أكثر نحو التنشئة الاجتماعية والرعاية النفسية التربوية، دون أن يعني ذلك تجاهل بقية الاهتمامات الأخرى لعلم النفس في كل من البلدين، وإنما يعني فقط مراكز ثقل اهتمامات العلم.

وإذا كان اهتمام أمريكا بعلم النفس ليس محل جدل، فإن الاهتمام المتزايد لروسيا بعلم النفس هو حقيقة واقعة أيضاً. فقد كان يوجد بجامعة موسكو قسم لعلم النفس بكلية الفلسفة، وكنتيجة لتزايد الاهتمام والاعتراف بعلم النفس تحول هذا القسم إلى كلية كاملة لعلم النفس بجامعة موسكو منذ عام ١٩٦٦ تدرس علم النفس العام وفروعه المتخصصة المختلفة (١٢ ص

(٦٤). إلى جانب أن كل الجامعات في روسيا والمعاهد التربوية بها تدرس مواد علم النفس. وفي مصر ظلّت هناك شعبة واحدة لتخصص علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس من أوائل الخمسينات حتى أواخر الستينات حيث أضيفت إليها شعبة أخرى لعلم النفس بكلية الآداب بجامعة القاهرة، ومنذ أواخر الستينات وأوائل السبعينات جاهدت هاتان الشعبتان لعلم النفس للانفصال والاستقلال استقلالاً تاماً من السنة الأولى بالجامعة ونجحنا حديثاً في هذا الانفصال والاستقلال مكونة كل منهما قسماً خاصاً بعلم النفس اعترف له في الجامعة بكامل الاستقلال من السنة الأولى للتعليم الجامعي. أما تدريس مواد علم النفس فهو شائع في كافة جامعات مصر ومعاهدها التربوية.

خاتمة:

استعرضنا في هذا المقال نماذج فقط من بعض إسهامات علم النفس التي رأينا أنها يمكن أن تسهم بشكل جدّي ويتأثير كبير على نجاح المجتمع في تحقيق أهداف التنمية به. وإذا كانت بلاد العالم المتقدمة تسعى نحو تحقيق أكبر استفادة ممكنة من إسهامات مختلف العلوم بما فيها علم النفس لخدمة قضايا التنمية بها فإن مجتمعاتنا السائرة في طريق النمو أحوج منها لهذه الاستفادة، وبالتالي ينبغي أن تكون أحرص منها عليها.

ولعلّ القراء قد اقتنعوا الآن بأهمية علم النفس لبلد نام كالمغرب. وتقديراً لذلك من جانب المسؤولين عن جامعة محمد الخامس، واعترافاً منهم بحاجة المغرب إلى هذا التخصص في الجامعة، فإنهم قد استجابوا لاقتراحنا بضرورة إنشاء شعبة خاصة بعلم النفس في كلية الآداب بالجامعة وكلفونا بوضع برامجها. وبالفعل تمّ افتتاحها بالعام الجامعي (١٩٧٤ - ١٩٧٥) لتمد المغرب بحاجته التي ولا شك ستزايد مع الزمن إلى متخصصين في علم النفس، يسهمون إلى جانب زملائهم من التخصصات العلمية الأخرى في دفع عجلة التنمية ببلادهم لتتطلق بأوسع خطى ممكنة.

وفي بداية العام الجامعي (١٩٧٥ - ١٩٧٦) ثار جدل شديد بين بعض أساتذة الجامعة، واشتركت فيه بعض الصحف حول حاجة المغرب إلى مثل هذا التخصص في الوقت الحاضر، وما إذا كان الصالح العام يقتضي بقاء هذا التخصص داخل الجامعة أم يقتضي إلغاءه. وفي النهاية انتصر الرأي القائل بضرورة استبقاء هذا التخصص لعلم النفس بالجامعة مع العمل على تدعيمه، لأنه في نهاية الأمر هو الرأي الذي يساير التطور. ويتفق والمنطق.

المراجع

- ١ - سوسن إسماعيل عبد الهادي : العلاقة بين مستوى القلق وغياب العمال في المجال الصناعي - في قراءات في علم النفس الصناعي - إشراف الدكتور فرج عبدالقادر طه - القاهرة - دار المعارف - ١٩٨٢ .
 - ٢ - فارس حلمي أحمد: سيكولوجية العامل المتغيب - في - قراءات في علم النفس الصناعي السابق ذكره .
 - ٣ - دكتور فرج عبد القادر طه: العلاقة بين الإصابات في الصناعة والصفحة النفسية للذكاء - القاهرة - المجلة الاجتماعية القومية - المجلد السادس - العدد الثالث - سبتمبر ١٩٦٩ .
 - ٤ - دكتور فرج عبد القادر طه: سيكولوجية العامل المشكل في الصناعة - القاهرة - المجلة الاجتماعية - المجلد التاسع - العدد الثاني - مايو ١٩٧٢ .
 - ٥ - دكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس في مؤسسات العمل - الرباط - المناهل - العدد الثالث - يونيه ١٩٧٥ .
 - ٦ - دكتور قدرى محمود حفني: دراسة تجريبية لأثر الجمود الإدراكي والجمود الحركي على التعرض للإصابات في الصناعة - في قراءات في علم النفس الصناعي السابق ذكره .
 - ٧ - دكتور محمود السيد أبو النيل: علاقة الاضطرابات السيكوسوماتية بالتوافق المهني في الصناعة - في قراءات في علم النفس الصناعي السابق ذكره .
- Brill, A; Basic Principles Of Psycho-Analysis: Simon Q. Schuster.Inc. - A 1972.
- Frazer, J; Psychology, Pitman Publishing; 1971. - ٩

**Ghiselli, E; And C. Brown; Personnel And Industrial Psychology Mc - 10
Graw - Hill, 1955.**

**Johnson, R; And, G. Medinnus; Child Psychology, John Willy Q Sons, - 11
1974.**

**Lur,a A; L,enseignement de La Psychologie A L, Université de Mos- 12
cou, Bulletin de Psychologie, XXV 294, 1971 - 1972. (Paris).**

**Klein, M; The Psycho - Anallysis Of Children, The Hogarth Press, - 13
1975.**

Valentin, C; The Normal Child, Pelican Book, 1956. - 14